الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد خيضر بسكرة

معهد علوم وتقنيات النشاطات البدنية والرياضية

مادة منهجية البحث العلمي

المحاضرة 04

مناهج البحث العلمي: مراجعة تاريخية

Scientific research methods: a historical review

أستاذ المادة		
الاسم واللقب	الرتبة	البريد الإلكتروني
د. صابر بن عيسى	أستاذ محاضر قسم "أ"	saber.benaissa@univ-biskra.dz

الطلبة المعنيين	
الكلية /المعهد	المستوى
علوم وتقنيات النشاطات البدنية والرياضية	سنة أولى جذع مشترك

أهداف المحاضرة 04

⇐ يعرّف المراحل التاريخية الرئيسة لتطور مناهج البحث العلمي من المرحلة العقلانية إلى ما بعد الوضعية.

⇐ يشرح الأسس الفلسفية التي قامت عليها كل مرحلة (العقلانية، التجريبية، الوضعية، ما بعد الوضعية، والبنائية).

⇐ يميّز بين منطلقات كل منهج في نظرته إلى "الحقيقة" و"المعرفة" و"العلم".

⇐ يربط بين التطور الفلسفي وبين المناهج البحثية المستخدمة اليوم في العلوم الإنسانية والرياضية.

⇐ يُقدّر قيمة التنوع المنهجي في البحث العلمي ويدرك أن لا منهج يحتكر الحقيقة.

⇐ يطوّر اتجاهًا إيجابيًا نحو التفكير النقدي واحترام وجهات النظر المختلفة.

⇐ يتبنى روح البحث والتقصي بدل التلقي، ويدرك أن المناهج ليست قوالب جامدة بل نتاج تطور فكري مستمر.

⇐ تكوين وعي فلسفي بأن المنهج العلمي ليس مجرد إجراءات بل هو رؤية فكرية تحدد كيف ولماذا نبحث، ومتى نستخدم الأرقام أو المعاني أو المزج بينهما.

في المستهل...

في بداية مشواره التدريبي، كان المدرب "سامي" يعتمد على الحدس والخبرة الشخصية في إعداد لاعبيه، فيلاحظ أداءهم بعينه، ويقيس التقدم بمشاعره. كان يقول دائمًا: "أنا أعرف متى يكون اللاعب جاهزًا من نظرة واحدة".

لكن بعد سنوات، لاحظ أن بعض برامجه تنجح مع فريق وتفشل مع آخر. فبدأ يقرأ في علم التدريب ويستخدم الاختبارات والقياسات، ويسجل النتائج بالأرقام والجداول. أصبح عمله كمّيًا، فكل شيء عنده قابل للقياس.

لاحقًا، في دورة دولية، تعرف على مدربين يتحدثون عن الدوافع، المشاعر، التواصل، والثقافة الرياضية داخل الفريق، وكيف أن فهم تجربة اللاعب ومعناه للجهد أهم أحيانًا من الأرقام نفسها. عندها بدأ "سامي" يجري مقابلات نوعية مع لاعبيه، يسألهم كيف يعيشون الضغط والتعب وكيف يفسرون الفوز والخسارة.

ومع الوقت، أدرك أن لا الأرقام وحدها كافية، ولا الكلمات وحدها؛ فبدأ يمزج بين المنهجين — الكمي والنوعي — ليفهم الأداء في أبعاده الجسدية والنفسية والاجتماعية معًا.

وفي ختام إحدى محاضراته لمدربين شباب قال: "كنت أبحث عن الأفضل بين المنهج الكمي والمنهج النوعي، لكني اليوم أدركت أن المنهج الحقيقي هو الذي يجمع بين الدقة والفهم، بين الرقم والمعنى".

الرسالة التربوية من القصة: : كما تطورت مناهج البحث العلمي عبر التاريخ من الفلسفة إلى الوضعية ثم النقدية وما بعدها، تطور أيضًا فهمنا للبحث في الرياضة — من الاعتماد على التجريب والقياس فقط، إلى الاهتمام بتجربة الإنسان الرياضي ومعناه للحركة، ثم إلى الدمج بينهما فيما نعرفه اليوم بـ المنهج المزجي.

1. المراجعة التاريخية لمناهج البحث العلمي

أشار العبد الكريم (2012)، الملاحظ أن كل منهج في الفكر الغربي يخرج ردة فعل لمنهج آخر يصطبغ في أكثر صيغه بالتطرف، وبمحاولة الانفصال التام والمعاكسة الحادة لذلك التيار. فالقراءة الواعية أمر لازم في مثل هذه الحالة، حتى يكون الحكم معتدلا ومنصفًا، وحتى لا يشط الباحث في تقويمه. **خرج المنهج النوعي** في البحث بإطاره الحديث ردة فعل للمنهج الكمي، ومحاولة لسد النقص الذي بدا فيه. فما يراه أصحاب المنهج الكمي ميزة للبحث الكمي، مثل الموضوعية والدقة والتجربة، يعده أصحاب المنهج النوعي حاجزًا منهجيًا يمنع الوصول للمعرفة، أو يشوهها أو يؤثر في تشكيلها (ص.4).

وعندما تقول إن البحث النوعي خرج ردة فعل للبحث الكمي، إنما نقوله باعتبار الوضع السائد في العصر الحديث، ومع ظهور البحث العلمي الحديث، إذ إن البحث والاستكشاف من حيث الأصل ومن عصور قديمة كان بطبيعته نوعيًا، أو على الأقل لا يفرق بين النوعي والكمي، فالإنسان منذ أن بدأ الملاحظة والاستكشاف والوصول للنتائج كان يعتمد على البيانات الكيفية بنفس القدر الذي كان يعتمد فيه البيانات الكمية.

اعتمد البحث في العصر الحديث المنهج الكمي متأثرًا بالبحث في العلوم الطبيعية، فكان كل علم إنساني يجتهد أن يجعل بحوثه تعتمد على الأرقام والتجريب لكي ينضوي تحت لواء **"العلوم"**، وينفصل عن **الفلسفة**، فاجتهد علماء النفس في الاعتماد على الأرقام من خلال المنهج التجريبي الذي يبحث عن العلاقة السببية بين المتغيرات، بينما اجتهد علماء الاجتماع في تطوير المنهج المسحي الوصفي الذي يهدف إلى كشف العلاقة الارتباطية بين المتغيرات. وقد رأى علماء النفس وعلماء الاجتماع، في سعيهم المحموم للتماهي مع العلوم الطبيعية، أن هاتين الطريقتين -التجريبية والمسحية- في المنهج الكمي كفيلتان بضمان "علمية" علم النفس وعلم الاجتماع.

ظهر في عصر النهضة الأوربي (القرن الثامن عشر الميلادي) توجهان عقليان يعتمدان العقل سبيلاً للوصول إلى الحقيقة التي تكون عندئذ علمية:

- التوجه العقلاني
- والتوجه التجريبي.

وقد خرج هذان التوجهان في مقابل التوجه الميتافيزيقي الذي كان يتمثل في الفكر الكنسي بشكل خاص، والذي كان مصطبغًا بالخرافة في كثير من جوانبه. فالأول (التوجه العقلاني) ورائده ديكارت وكان يرى أن العقل من خلال التأمل والتفكير المنطقي الخالص يمكن أن يصل للحقيقة. والثاني (التوجه التجريبي)، الذي يرى أن العقل لا يمكن أن يستقل بذلك بنفسه بل لا بد من الاعتماد بالدرجة الأولى على التجريب الذي يستخدم الحواس من خلال الملاحظة، وسمي هذا التيار بالتيار التجريبي أو الحسي، ومن أشهر رواده جون لوك (1632- 1704). وقد شجع مذهب لوك التجارب في جميع الميادين، حيث كان يرى أن الإدراك الحسي الذي نصل إليه من خلال التجريب يطبع في أذهاننا نسخة طبق الأصل عما هو موجود في العالم الخارجي (سترومبرج، 1994، ص.159).

وقد عارض التيارُ التجريبي التيار العقلاني الصِّرف معارضة شديدة، أدت إلى انحسار الثاني، ما أسهم في تشجيع التجريب ودفع التطور في العلوم الطبيعية، وأدى إلى حدوث اكتشافات كثيرة في جميع مجالات العلوم الطبيعية. وكما يقول (سترومبرج، 1994، ص.161). "فقد تحالف مذهب لوك مع مذهب نيوتن على تدعيم وتطوير المنهاج المختبري التجريبي وعلى زيادة رأس مال العلوم العملية، كما شجع الترقب الواثق بأن ذلك المنهاج يستطيع بلوغ معرفة واقعية ويقينية معاً."

بعد النجاح الذي لاقاه المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية، وما صحبه من تفاؤل بما يمكن أن يحققه هذا المنهج لمستقبل البشرية، جاء أوجست كونت (1796 - 1857) ليطبق مبادئ المنهج التجريبي الحسي في العلوم الاجتماعية، بحيث يخضع الظواهر الإنسانية والاجتماعية لمناهج البحث الطبيعي التجريبية. فقد كان هناك طموح إلى أن تكتشف القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية، كما اكتشفت القوانين الفيزيائية في العالم الطبيعي، وبذلك يمكن التحكم بالمجتمع وربما بالأفراد، وتؤسس السياسة على العلم. وقد سار العلم في هذا الاتجاه وفي ظل هذه القناعة المتفائلة ردحًا من الزمن. وسمي هذا **التوجه بالتوجه الوضعي** Positivism . ولكن الأمور لم تسر بهذا الاتجاه طويلا، بل كشف العلم عن تعقيد أبعد بكثير من هذه السطحية خاصة في الظواهر الاجتماعية، التي صارت تزداد تعقدا مع زيادة التقدم في دراستها.

"الحقيقة" في التوجه الوضعي تقع خارج الذهن، وخارج خبرة الإنسان ووعيه، فهي منفصلة عن الباحث أو الذات الواعية، ومهمة الباحث هي التوصل لها والكشف عنها، ولا يمكنه ذلك إلا بالتجرد من ذاتيته والاحتكام لمعايير خارجية، وهو ممكن بحسب التوجه الوضعي، وهو ما يسمى الموضوعية، بحيث يكون محايداً في النظر الموضوع بحثه، ولا دخل لقَيمه أو آرائه الشخصية في طريقة البحث. والنتائج التي تخرج من البحث تكون عادة قابلة للتعميم ويعتمد عليها في التنبؤ، بناء على الفرضية

المتأثرة بالبحث في العلم الطبيعي بأن هناك قوانين عامة تتحكم في السلوك البشري والظواهر الاجتماعية، فالبحث لم يزد على أن اكتشف قانوناً ينطبق على كل حالة مماثلة (Morris ,2006).

فالوضعية، كما يعرفها (Hitchcock & Hughes,1989)، هي "الرؤية الموجودة في العلوم الاجتماعية والتي تهدف إلى تحقيق الموضوعية في البحث الاجتماعي عن طريق تبني طرائق وإجراءات العلوم الطبيعية".

ويمكن تعريف الوضعية بمفهومها العام بأنها "مجموعة من الفلسفات تميزت بالنظرة الإيجابية المفرطة للعلم والطريقة العلمية (Resse, 1980) "، حيث رأى الرواد الأوائل لهذه المدرسة في العلم وسيلة واعدة لإصلاح الدين والأخلاق والسياسة والفلسفة، فالوضعية ابتدأت محاولة متفائلة لتوسيع المنحى العلمي ليشمل العلوم الاجتماعية والفلسفة. وتنسب هذه المدرسة إلى الفيلسوف الفرنسي **أوجست كونت**، إذ إنه ركز على تطبيق المنهج الذي كان متبعا في العلوم الطبيعية في العلوم الاجتماعية، رغبة في محاكاة الدقة التي تتميز بها العلوم الطبيعية. وقد صاغ كلمة سوسيولوجي وعنى بها تطبيق علم المجتمع الذي يقتفي خطى فيزياء نيوتن (Chambliss, 1996) .

وهناك فرضيات أساسية في هذه الرؤية في السلوك الإنساني:

الأولى: وهي أهمها، أن السلوك الإنساني يمكن التنبؤ به، ومعلل (ناتج عن علة وسبب) ويتأثر بالعوامل الداخلية والخارجية.

الثانية: أنه يمكن ملاحظة هذه الجوانب وقياسها، من حيث المبدأ كما تقاس الظواهر الطبيعية.

الثالثة: أنه لا فرق نوعيا بين العلم الطبيعي والعلم الاجتماعي.

ومع انتشار الوضعية في العلوم الاجتماعية ازداد التأكيد على مبدأين أساسين:

1- التفكير الاستنتاجي deductive Reasoning ، حيث يتم الانتقال من العموم إلى الخصوص، أو من القاعدة إلى التطبيق على الأمثلة.

2- التحقق Falsifiability ويقصد به أن كل نظرية لكي تكون علمية يجب أن تكون قابلة لأن يُتحقق من مدى صدقها، كما يجب أن تجتاز اختبار التحقق.

وقد عزز هذا المنهج **كارل بوبر** خاصة في كتابه منطق الاكتشاف العلمي (Poper, 1959) الذي كان يرى فيه أن النظريات لا يمكن اعتبارها علمية بشكل صحيح ما لم تكن مطروحة بشكل يمكن، من حيث المبدأ، من نقضها ودحضها، وبهذا تمر في اختبار التحقق من صحتها. ولذا فعلى الباحث أن يصوغ نظريته بشكل يجعلها مفتوحة للتحقق من الصحة وقابلة للدحض، ويكون أيضاً مستعداً للتخلي عنها على أنها غير علمية عند عدم اجتيازها لاختبار الصحة. "إن الفكر الذي يكمن خلف نظرية كارل بوبر التفنيدية للتقدم العلمي يؤكد أنه على الرغم من أننا لن نستطيع أن نكون أبداً في موقع يمكننا من أن ندرك أننا قد توصلنا إلى الحقيقة، فإنه تكون هناك حالات نصبح عندها على يقين بأننا [لم] نصل إلى الحقيقة، وهي الحالات التي تكون نظرياتنا قد سارت فيها خلاف الواقع، وأظهر هذا الواقع خطأ نظرياتنا... وهذا يؤكد أن أحدث نظرياتنا هي أيضاً أفضلها لأنها أقربها إلى الحقيقة النهائية. وهكذا فإن الوضعية ترى أن تاريخ العلم يسير بشكل تقدم خطي تراكمي (Kuhn,1970) تسود فيه علاقة الاشتقاق بين النظريات الخاصة والعامة، وتشتق فيه النظريات الأحدث من الأقدم، ويكون أفضلها ما يثبت النقص أو الخطأ لما سبقها من نظريات" (باركر، 2007).

ولذلك كانت الاختبارات الكمية والإحصائية التي تجرى لاختبار النظريات (الفرضيات) دقيقة جداً وتعتمد المنهج الكمي الصارم. وقد انتشر هذا المنهج الكمي بشكل شبه كامل في البحوث العلمية وصاحبه رغبة وأمل في محاكاة الدقة التي يتوصل إليها العلماء في البحث في العلوم الطبيعية.

وقد أصبح التفكير الاستنتاجي، والقابلية للتحقق سمتين بارزتين فيما عرف بالمنهج العلمي. وبناء على هذا صارت السمة الأساسية للوضعية هي التزامها بما يعرف بالمنهج العلمي، بحيث يكون الاهتمام منصباً على قياس وتكميم السلوك الإنساني والاجتماعي (أي تحويله إلى كم) بهدف إيضاح الأنماط المتكررة في الظاهرة المدروسة (باعتبار العدد هو العامل الأهم) وبيان العلاقات التي تم رصدها بين تلك الأنماط، باستخدام الأدوات المتقدمة والدقيقة للعلم الطبيعي للوصول إلى صيغ عامة تشبه القوانين.

كانت أعمال أوجست كونت هي أساس الوضعية (Phillips & Burbules 2000) ، فبسببه أخذت مجالات العلوم الإنسانية (علم النفس وعلم الاجتماع) تبدأ في مجاراة العلوم الطبيعية في هذا المجال. فصارت الظواهر الإنسانية والاجتماعية تخضع للتجريب كما يعمل مع الظواهر الطبيعية، وما يتم التوصل إليه من نتائج يعمم، ويكون قانونا علميًا. وفي هذا التوجه

ساد البحث التجريبي والبحث الإحصائي كوسيلة لقياس الظواهر وإثبات أو نفي الأثر أو العلاقة بين المتغيرات في الظواهر الطبيعية، وهو ما اصطلح عليه بالبحث الكمي.

ولجعل المنهجية العلمية إجرائية طرح علماء النفس الطريقة التجريبية في البحث واتخذوها منهجا لهم، وطرح علماء الاجتماع الطريقة المسحية، فالطريقة التجريبية تستكشف السببية، والطريقة المسحية تستكشف الارتباط. فقد سعى علماء النفس لطرح المنهج التجريبي في علم النفس للتأكيد على انفصالهم عن الفلسفة واستقلالهم بمجال علمي مستقل (Morris,2006).

ويلخص (أحمد، 1999) المبادئ التي تقوم عليها الوضعية في التالي:

1- عقل الإنسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة المادية وهو قادر على تسجيل هذه الطبيعة وتلقيها بشكل محايد وموضوعي، ولكنه غير قادر على تجاوزها أو الاستقلال عنها.
2- العقل الإنساني قادر على تسجيل الجوانب العامة والمشتركة وهي تلك الجوانب الطبيعية والمادية وهي وحدها التي تساعد على التوصل للقانون العام.
3- الحقائق عقلية، وحسية قابلة للمعرفة في جميع جوانبها، والموجود هو ما كان محسوسا وما وراء ذلك ليس من المعرفة في شيء.
4- المجهول في الطبيعة أمر مؤقت، ومن خلال تراكم المعلومات سيصبح هذا المجهول معلوما، وسيؤدي المعلوم المتزايد إلى التحكم الكامل والتنبوء الدقيق، ومن هنا كانت هذه النظرة وضعية متفائلة.
5- العقل قادر على إعادة صياغة الإنسان وبيئته المادية والاجتماعية بما يتفق مع القوانين الطبيعية العامة التي أدركها الإنسان من خلال دراسته لعالم الأشياء وطبيعتها.
6- وحدة العلوم، فكل ما يتعلق بالإنسان من علوم يخضع بشكل مطلق لقوانين الضبط والقياس والتحكم والتفسير التي تستخدم في دراسة الظواهر الطبيعية، وتخضع الظواهر الإنسانية لإجراءات مناهج البحث نفسها في العلوم التجريبية الطبيعية.

7- كلما تم تجريد الظواهر الإنسانية من خصوصيتها وارتفع مستوى التعميم ازدادت "العلمية"، ومن هنا يجب الاستمرار في تجريد تلك الظواهر من الجوانب الشاعرية والروحانية والتخلص من مفاهيم كالإرادة الحرة ونسبية المواقف الإنسانية والاجتماعية وتشبعها بالمعاني الكامنة.

8- تفسير السلوك الإنساني من خلال نماذج بسيطة، أي استبعاد المركب وغير المتجانس والمختلف من الدراسة العلمية للإنسان وسلوكه، حتى يمكن ردها للبسيط والمتجانس.

9- ضرورة تجرد الباحث في العلوم الإنسانية من خصوصيته ومن التزاماته الأخلاقية ومن عواطفه وانحيازاته، ويحول عقله إلى صفحة بيضاء يسجل عليها الحقائق ويرصد الوقائع بحيادية كاملة، أي بسلبية تامة، ومن ثم تتحول الظاهرة، أي ظاهرة، إلى مجرد شيء.

10- استخدام المصطلحات العامة الدقيقة الوصفية الكمية، المحددة والمعرفة إجرائيا، والابتعاد عن الكلمات المجازية والتقريبية والمرتبطة بالقيم والكيفية، ولتحقيق هذا يجب الاعتماد على القياس بأدواته المختلفة واستخدام النماذج الرياضية.

وقد سار البحث العلمي عقودًا طويلة على هذا المنهج، يتقيد أحيانا بالوضعية الصارمة، ويخف التقيد أحيانا أخرى، فالوضعيون يرون أن البحث في العلوم الاجتماعية يجب أن يسلك المنهج ذاته الذي يسلك في العلوم الطبيعية ويستخدم الأساليب نفسها.

وقد عزز هذا التوجه الرغبة العارمة لدى علماء النفس في إظهار "علم النفس" على أنه علم قائم بذاته منفصل عن الفلسفة وعما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) ويعتمد على التجربة الحسية. وقد كانت الخلفية العلمية لبعض رواد علم النفس مرتبطة بالفيزياء (Eisner, 2003) .

بدأ هذا المنهج يتعرض لتحديات كبيرة، ونقد متزايد، نتج عن أمرين:

الأول: ظهور بعض النظريات العلمية، وخاصة في مجال الفيزياء، التي صارت تشكك في مستوى اليقين والمطابقة للواقع الذي كان يُعتقد إمكانية الوصول إليه نتيجة للبحث العلمي في الظواهر الطبيعية. كما أن اعتماد البحث الكمي على نظرية الاحتمالات probability theory ونظرية العينة sampling theory تعرض لنقد من كثير من الباحثين بسبب أنه يشترط افتراضات لا تكاد تتوفر في البحث(Morris, 2006).

الثاني: قناعة كثير من الباحثين والعلماء بتعقد الظواهر الاجتماعية والسلوك الإنساني، بما يجعل من المستحيل ومن غير العلمي، المساواة بينها وبين الظواهر الطبيعية في أسلوب الدراسة والاستكشاف.

ومن هنا ظهر ما يعرف بإشكالية المنهج، سببتها النظرة الوضعية التي كانت لا تفرق بين العلم الطبيعي والعلم الاجتماعي من ناحية منهجية البحث، بحيث لا تعد العلوم الاجتماعية علوماً ما لم تسلك منهج البحث في العلوم الطبيعية، يقول (عرابي ، 1428): "إن شيئية الظاهرة الاجتماعية [النظر إليها على أنها شيء، كما في العلوم الطبيعية] بوصفها أشياء قابلة للملاحظة والتجربة، هي التي عمقت الخلاف المنهجي وساهمت في تطوير المناهج [البحثية]، ولم تفجر هذه الرؤية المنهجية الخلاف بين مناهج العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية فقط، بل صعدت حدة الخلاف داخل العلوم الاجتماعية بين من يأخذ بمنهج العلوم الطبيعية وبين من يؤكد على خصوصية المنهج في العلوم الاجتماعية والتاريخية. وقد شغل هذا الخلاف المجتمع العلمي طوال القرن العشرين.

وقد أرجع إدموند هوسيرل (1899- 1959)، مؤسس الفلسفة الظاهراتية، أزمة العلوم الاجتماعية في الغرب إلى المنهج الوضعي الذي قطع الصلة بين العلم والحياة اليومية، واهتم بتقنيات البحث ودقة نتائجه أكثر من اهتمامه بدراسة الواقع الاجتماعي وفهمه، وقد عرف ذلك بـ (صنمية المنهج).

ويرى كريب "أن تعقد موضوع العلوم الاجتماعية واستحالة عزل جوانب مهمة من الحياة الاجتماعية لاختبارها، وكون النشاط الإنساني عملية تستند على الوعي الذاتي والتأمل، وأن هذه العوامل مجتمعة تجعل مثل هذه الطريقة الشبيهة بطريقة حل الألغاز تشويهاً للواقع أو اختزالاً له، كما يقول بعض الناس: إنها تختزل الواقع الحقيقي المتشابك إلى مجموعة من المفاهيم النظرية". (كريب، 1992). "وقد أصبح من الواضح للجميع في المجتمع المعاصر المعقد [عند التعامل مع الظواهر الاجتماعية] أن العبارات الكمية الإحصائية لاستطلاعات الرأي وبيانات الحكومات وقوى المعارضة والتقارير العلمية "المستقلة" وكل ما كشف عنه البحث العلمي، جميع هذه العبارات في كل هذه المجالات يمكن أن تقول لنا أشياء متباينة تماماً، وتكون خاضعة للتلفيق السياسي" (هوليداي، 2007).

وبناء على هذا ظهرت توجهات، ترى أن دراسة الإنسان وحياته والظواهر الاجتماعية المرتبطة به تحتاج إلى تأملات أعمق وأوسع ولها طابع الشمول، ولا يمكن أن تتم بالطريقة التجزيئية التي تستخدم في مجال العلوم الطبيعية، ويصعب أيضاً تطبيق مبدأ التعميم عليها كما في العلم الطبيعي، وبالتالي تتطلب طرقاً أخرى، فمن أولى مميزات الظاهرة المجتمعية والتربوية

خصوصاً تداخل المتغيرات إلى درجة كبيرة جداً، وأنها في تغير دائم ومستمر قبل أن يمضي وقت كاف للتحقق من نتائجها (إبراهيم، 2008). ظهر هذا التوجه في كتابات مفكرين مثل إدموند هوسيرل، الذي كان من أشد المنتقدين للمنهج الوضعي (عرابي ، 1428)، وماكس فيبر (1864- 1920)، وكتابات هؤلاء تعود أصول أفكارها إلى المفكر إيمانويل كانت (1724- 1804) **الذي كان يرى أن الحقيقة** تتأثر بتفسيرنا لها، وأن ما نقول عنه إنه حقيقة إنما هو تفسيرنا للحقيقة. فكانْت يرى أنه يمكن أن نتوصل لشيء من الحقيقة عن طريق البحث العلمي الصارم والتجريبي لكن لا سبيل لإدراك كل الحقيقة على ما هي عليه حقاً. من هذا التوجه المخالف للتوجه الوضعي خرج التوجه النوعي في البحث.

ومن الواضح أن البداية الأولى كانت الانقلاب التصوري الذي نتج عنه إعادة النظر في (الحقيقة)، حيث صارت تطرح أسئلة مثل:

- هل هناك حقيقة خارج الذهن؟
- وإن كان، فهل يمكن الوصول إليها؟ بمعنى هل لدى البشر القدرة على ذلك؟
- وإن كان لديهم الوسائل، فما مدى دقة ما يتوصلون إليه وما مدى مطابقته للواقع؟

وغير ذلك من الأسئلة التي أظهرت أن الحقيقة في كثير من الأحيان ليست أمراً سطحياً كما يبدو لأول وهلة، بل هي بالغة التعقيد، ومتعددة الأوجه.

يقول جارودي واصفًا الوضع الذي آل إليه وهم التقدم الوضعي:

"وتهاوت أوهام كثيرة، وهم رخاء الرأسمالية الذي لا حدود له، وهم الديموقراطية التي كان يتصورها الناس على أنها (جمهورية الذوات الواعية) وتصوروا وجودها يسمو على صالح الأفراد والجماعات، ... وأوهام فلسفية أخرى تقابل تلك الأوهام التاريخية: وهم المثالية الطيبة التي تصور العالم على أنه عالم شفاف ينعم بوجود عقل خالق ومنظم له. هذه النزعات التلفيقية ذات النغمة الطيبة في عالم وجدت جميع المشاكل فيه حلًا لها من خلال التأليفات الروحية واجهت فجأة امتحانًا قاسيًا في قلب الحياة نفسها وبتأثير الأفكار التي انبعثت من هذه الحياة وشاهدنا في بحر سنوات معدودات أن الفلسفات التي كان قد كُتبت لها السيادة الكاملة حتى ذلك الحين - على الأقل في الجامعات - قد جرفها الطوفان وانقلبت الليبرالية العقلية إلى اتجاه عدمي فاشيّ وتحول المذهب التفاؤلي إلى وجودية مأساوية" (جارودي، 1938).

فظهور التصور الذي يرى أن الحقيقة ليست بالضرورة هي ما نتوصل إليه بعقولنا وعن طريق حواسنا، بل قد تكون غير ذلك، وهي بالتالي نسبية. ومواجهة هذا التوجه بقبول متنام، فتح المجال لظهور تصورات تحاول أن تطرح تفسيرًا "للحقيقة"؛ فهل هي فردية، أم اجتماعية، وهل يلزم الوصول إلى حقيقة واحدة؟ وهل يلزم الباحث شيء تجاه هذه الحقيقة بغض النظر عن طبيعتها؟ وقد ساند هذا القبول خيبة الأمل التي أصيبت بها الدوائر العلمية والفكرية فيما كانت تبشر به الوضعية من التطور المطرد.

فالمتفق عليه بين التوجهات الحديثة التي خرجت ردة فعل على الوضعية هو أن الحقيقة ليست مطلقة، بمعنى أنها مرتبطة بالمكان والزمان. وأنها تُبنى وترتبط بتفسير من ينظر إليها. لكن مستوى هذه النسبية ومدى ارتباط الحقيقة بالزمان والمكان مما تختلف فيه التصورات. وهذا التوجه العام في نسبية الحقيقة هو ما يطلق عليه إجمالا **ما بعد الحداثة**، وهو ردة فعل للحداثة.

مجمل النقد الذي وجه للمنهج الكمي

انطلاقا من هذا التحول في الأسس النظرية تعرض المنهج الكمي إلى نقد كبير وموسع (وفي كثير من الأحيان قاس) من رواد البحث النوعي الأوائل؛ إذ حاولوا، في أثناء الدفاع عن آرائهم ضد الهجوم القاسي أيضا من أنصار البحث الكمي، بيان مثالب البحث الكمي، والمنهج الوضعي بشكل عام.

وقد لخص (Citler, 1984)النقد الذي وجه للمنهج الكمي في النقاط التالية:

الأولى: لا توجد الظواهر الاجتماعية خارج إدراك الفرد ووعيه، بل تقوم على تأويلات الأفراد لجماعة ما.

الثانية : ليس من السهل تعريف الظواهر الاجتماعية بأنها موضوعية، بل على العكس إنها تؤول بوصفها أفعالا اجتماعية من جانب مضمون المعنى، أي يؤول بشكل مختلف وفقا للموقف.

الثالثة: القياسات الكمية، بما فيها التقنيات لا تستطيع تحديد الفعل الاجتماعي حقيقة. وغالبا ما تزين الأسئلة المختلفة، وكثيرًا ما تؤدي إلى أن ينسب إلى الفاعل بأن لفعله معنى مُعينًا، والذي هو على الأغلب من صنع الباحث، وليس الفاعل.

الرابعة: أنه أمر مشكل أن يطلب، كما في العلوم الطبيعية، بأن تصاغ الفرضيات قبل البحث لاختبارها؛ لأن في ذلك فرض شيء على الفاعلين لا يستند إليه فعلهم. وبناء عليه لا يؤدي مشروع البحث العلمي إلى فهم صحيح للسلوك الإنساني.

وقد ظهرت تيارات مختلفة تخالف التوجه الوضعي، واختلفت تلك التيارات في قوة المحالفة ونوعيتها. وسوف نعرض أهم هذه التصورات التي عارضت الوضعية.

2. الأسئلة والإجابة

1. كيف تفسر عبارة: "كل منهج في الفكر الغربي يخرج ردة فعل لمنهج آخر يصطبغ بالتطرف"؟

لأن المناهج الفكرية في الغرب تطورت في شكل ردود فعل متطرفة ضد ما قبلها (مثل النوعي ضد الكمي).

2. ما الفرق بين المنهج العقلي والمنهج التجريبي؟ ومن هما أبرز روادهما؟

العقلاني (ديكارت): الحقيقة عبر التفكير العقلي. التجريبي (لوك): الحقيقة عبر الملاحظة والتجربة.

3. ما الفكرة الأساسية التي جاءت بها الوضعية عند أوجست كونت؟

الوضعية: تطبيق منهج العلوم الطبيعية على دراسة المجتمع، والبحث عن القوانين الاجتماعية.

4. ما المقصود بالمنهج الكمي؟ وما أبرز مميزاته وحدوده؟

المنهج الكمي: يعتمد على القياس، التجريب، التنبؤ، لكنه يختزل الظواهر ولا يفسر معناها الإنساني.

5. ما الإضافة التي قدمها كارل بوبر لمفهوم العلمية؟

بوبر: النظرية العلمية يجب أن تكون قابلة للدحض (التفنيد)، وليس للتحقق فقط.

6. ما المقصود بعبارة "صنمية المنهج"؟ ومن صاحبها؟

صنمية المنهج: الانشغال المفرط بأدوات البحث دون فهم الظواهر (هوسيرل).

7. كيف فسّر هوسيرل وماكس فيبر أزمة العلوم الاجتماعية؟

رأوا أن الظواهر الاجتماعية معقدة، ولا يمكن دراستها بنفس منهج العلوم الطبيعية.

8. ما الفكرة الأساسية التي جاءت بها ما بعد الحداثة؟ وكيف غيّرت مفهوم "الحقيقة"؟

ما بعد الحداثة: ترى أن الحقيقة نسبية ومتعددة، ولا توجد حقيقة مطلقة.

9. لماذا ظهر المنهج النوعي الحديث كرد فعل على المنهج الكمي؟

لأن المنهج الكمي فشل في تفسير التجارب الإنسانية المعقدة، فجاء النوعي لفهم المعنى والسياق.

10. اذكر أهم الانتقادات التي وجهها الباحثون الكيفيون للمنهج الكمي.

أهم الانتقادات: القياس لا يعكس الواقع الاجتماعي، الفرضيات مفروضة على الفاعلين، تجاهل السياق والمعنى.

المراجع

العبد الكريم، راشد بن حسين. (2012). *البحث النوعي في التربية*. النشر العلمي والمطابع جامعة الملك سعود.

القحطاني، حمد، كليبي، رشا، والداوود، منال. (2021). *الكتابة الأكاديمية والنشر العلمي وفق دليل نشر الجمعية الأمريكية لعلم النفس*. شركة تكوين للطباعة والنشر والتوزيع.

كرسويل، جون. (2019). *تصميم البحوث الكمية- النوعية- المزجية*. ط.2. (عبد المحسن عايض القحطاني، مترجم). دار المسيلة للنشر والتوزيع. (العمل الأصلي نشر في 2014).

الموسى، أسماء إبراهيم عبد الله. (2019). *تصور مقترح لتفعيل البحث الكيفي في تخصص أصول التربية بالجامعات السعودية في ضوء الخبرات العالمية المعاصرة* [رسالة دكتوراه، جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية].